تقديم

نحن فى حاجة إلى ثقافة مغايرة، ينطلق هذا المبدأ من إيمانى بالدور الحيوى الذى تلعبه الثقافة فى المجتمع. إن الثقافة أساس التنمية، فى كل جوانبها، كما أكد تقرير اليونسكو الذى نشر فى كتاب بعنوان: «التنوع البشرى الخلاق». ولقد عشنا طويلا تحت وهم أن الاقتصاد أساس التنمية، وقيل لنا إن الصناعة أساس التنمية، ثم قيل لنا إن العلم هو أساس التقدم فى كل شىء، ومن ثم أساس التنمية. ولقد أثبتت التجارب أن كل هذه الأقوال لا محل لها من الإعراب لأنها لم تؤد إلى التقدم المنشود فى كل مرة اعتمدت عليها الدول النامية أو المتخلفة بلا فارق كبير. فلقد أثبتت تجارب هذه الأمم، ولا تزال، أنه لا تنمية صناعية أو اقتصادية ما لم تسندها ثقافة تدعمها، وتدفع بها إلى الأمام. وبالقدر نفسه لا يمكن تطوير العلم أو إسهامه فى التقدم، فى مجتمعات لا تزال تؤمن بالخرافة، ولا تعترف بالتفكير العلمى منهجا فى نظرتها إلى الحياة وإلى المستقبل فى آن. إن الثقافة هى أساس التقدم والقوة المحرِّكة له فى كل مجال، ابتداء من السياسة وليس انتهاء ببناء بنية تحتية قوية وكافية، ينهض على أسسها ازدهار العلم.

وليست كل ثقافة تدفع إلى التنمية بالطبع، فالثقافة لفظة محايدة تشير إلى أشكال الوعى الاجتماعى والقيم والأعراف والموروثات. وينطلق من هذا التعريف الأساسى التمييز بين الثقافات، فهناك ثقافة ماضوية (مهووسة بالماضى) وثقافة مستقبلية، كما أن هناك ثقافة منغلقة وثقافة مفتوحة. أما الثقافة الماضوية فهى ثقافة منغلقة على نفسها، تجعل من الماضى إطارها الأوحد فى القيمة، بمعنى أنها لا تستحسن أو تستقبح شيئا إلا إذا كان له نظير قبيح أو حسن فى الماضى، وفى الوقت نفسه، لا تقبل فى حاضرها أى جديد إلا إذا كان له شبَه فى الماضى، ولذلك فهى ثقافة تمضى إلى الأمام ووجهها فى قفاها، كما وصف المرحوم أحمد أمين هذا النوع من الثقافات. والتقليد هو أساس هذا النوع، وأهل السلف هم أفضل دائما من الخلف، والماضى دائما أكثر أمنا وإيجابية من الحاضر الذى يبدو منحدرا، دائما، إلى الهاوية. ومفهوم التاريخ نفسه هو مفهوم أقرب إلى الخط الهابط من الأعلى إلى الأدنى، أو أقرب إلى الدائرة التى تعود حركتها إلى حيث ابتدأت فتكتمل، كأنه لا جديد تحت الشمس، وما نقول إلا معادا من قولنا مكرورا. ونقطة الضوء فى الماضى هى عصر ذهبى، يتم تصوره فى هذه الثقافة بوصفه عصرا ذهبيا يوجد فى تمامه وكماله، ولكنه ينحدر مع حركة البشر، أو بحركة البشر إلى أن يصل إلى الهاوية، وذلك قبل أن تأخذه دورة الوجود إلى الصعود، فتستعيد اللحظة الذهبية فى الماضى أو ما يشبهها. ولذلك فما أكثر البكاء على الماضى والحنين إليه فى هذه الثقافة، حتى فى مجالات مأثوراتها الشعبية.

والمستقبل شىء غامض يبعث على الخوف من تأمله فى هذه الثقافة التى تجد راحتها ومراحها فى استعادة ماضيها، درسا وتأملا وتحقيقا. ولذلك لاتسمع عن شىء اسمه الدراسات الثقافية فى هذه الثقافة، فكل ما يومئ

إلى المستقبل ينطوى على مخاطرة، لا تخلو من المغامرة. وكل جديد بدعة متحركة فى هذه الثقافة، ما ظل لا سند له، ولا شبيه، ولا أصل يقاس عليه فى الماضى. والتعليم، كالعلم فى هذه الثقافة، شروح أو حواش على متون أو نصوص سابقة. والعلم ليس التجريب، أو التحديث، أو التكنولوچيا، أو الإسهام فى إنتاج منجزات التقدم التى أصبحت تشبه المعجزات، وإنما هو شرح المتاح بعد أن يوجد له ما يسنده فى الماضى، والتديين الذى يقحم الدين فى كل شىء، متجاهلا موروثنا الإسلامى الذى يأمرنا بأن نعمل ونجتهد مانستطيع كأننا نعيش أبدا، ونتَّقى الله كأننا نموت غدا، فضلا عن كوننا أدرى بشؤون دنيانا. وهو إقحام يترتب عليه، أو يصاحبه، كثير من مظاهر التعصب التى تنتقل من المجالات الدينية إلى غيرها من المجالات فتؤدى إلى تعميق وتوسيع أشكال التمييز فى المجتمع، عقائديا وطائفيا وعرقيا ونوعا أو جنسا.

ويصاحب ذلك كله صفة الانغلاق التى هى نتيجة طبيعية لما سبقها، فالثقافة المتهوسة بالماضى تلجأ إليه عادة، أو فى أغلب الأحوال على الأقل، حماية لها من احتمالات الحاضر المقلقة، أو تحديات المستقبل المخيفة. ولذلك فهى معادية للآخر المختلف، لأن الأصل فيها هو التشابه لاالاختلاف، والهوية لا الغيرية. و"الآخر" تتعدد صوره فى هذا السياق، فهو المختلف عنا فى المذهب الدينى، أو الوضع الطبقى، أو نوع الجنس، أو اللون، أو العرق. ويمتد أمر العداء للآخر إلى الثقافات الأجنبية التى تتحول إلى مصدر خطر داهم، خصوصا حينما تقترن بالغزو العسكرى، ومن ثم التبعية الاقتصادية التى تتحول إلى اتِّباع فكرى.

ولا تميز الثقافة الماضوية التقليدية بين أوجه الآخر المستعمر الغازى ونظيره المتقدم الذى يمكن أن نفيد من علمه، ونأخذ عنه أخذ الواثق من قدرته على المساءلة وإعادة الإنتاج.

وبالطبع، فهذا النوع من الثقافات هو ثقافة التخلف التى تحدثت عنها فى أكثر من موضع، ولا أزال أرى أننا نعيش شروط الضرورة التى تفرضها علينا، والتى تتبادل شروطها الفكرية المعنوية وشروط التخلف الاقتصادى العلمى والظلم السياسى والقهر أو التمييز الاجتماعى، فثقافة التخلف تتبادل الوضع والمكانة والفاعلية، فى كل مجال من مجالات مجتمعها. والنتيجة أنها تدعم الدولة الاستبدادية، دائما، وتتدعم بها، وتكون سندا للتعصب والتطرف الدينى اللذين يتحولان إلى تبرير لها وأرض تنمو فى فضائها. وقل الأمر نفسه على بقية أشكال التفاعل وتبادل الأثر والتأثر بينها وبين التخلف فى كل مظاهره.

وعلى النقيض من ذلك ثقافة المستقبل، الثقافة المفتوحة، واثقة من قدرتها الخلاقة على الإضافة، متطلعة دائما إلى مستقبلها بما لا يقلل، أبدا، من اعتزازها باللحظات والإنجازات المضيئة فى ماضيها أو تراثها. وهى ثقافة تتسلح بالعلم وتؤمن بالتجريب إيمانا بالعقل والتفكير العلمى، جنبا إلى جنب حق الاختلاف، وضرورة التنوع والتعدد فى كل شىء بوصفهما علامتى غنى وثراء فى المجتمع وللمجتمع. ولن تجد أحدا يُحاكم على فكره فى هذه الثقافة، أو حتى مجرد تفكير فى مصادرة كتاب أو تقييد أو مراقبة لإبداع، فكل شىء مفتوح فى هذه الثقافة التى تزدهر بالحرية وتؤدى إلى تسريع عجلة التقدم فى مجتمعها، ولا تكف عن دفعها، فى أفق إبداعها، إلى ما لا حدّ له أو نهاية فى الإضافة الخلاقة لثقافات التقدم التى تؤمن بوحدة الإنسانية، دون أن تتنكر، قط، لخصوصية كل ثقافة والطبيعة النوعية المغايرة لكل حضارة، فى مدى التفاعل والتعاون والاعتماد المتبادل بين الحضارات والثقافات على امتداد الكرة الأرضية.

هذا النوع الأخير من الثقافة هو ما أحلم، وما أنتسب إليه، وما أتطلع إلى إشاعته فى مجتمعاتنا العربية التى لا يزال يوجعنا تخلفها فى كل مكان، وعلى الأخص تخلفها الثقافى. وانطلاقا من هدف تغيير ثقافة التخلف السائدة، كتبت هذه المقالات التى تتجاور مع غيرها والتى صدرت فى كتب مستقلة، تحقيقا للهدف نفسه:

حلم قد لا نشهده ..

خلجان قد لا نرسو فيها ..

رغم محبّتنا للمدن الدافئة ببطن الخلجان!

جابر عصفور

الدقى،أغسطس 2007

obeikandl.com